بسم الله الرحمن الرحيم

٥١ — سورة الذاريات

قال المهايمىّ : سميت بها لأنها مبدأ الخيرات ، فأشبهت العناية الإلهية . وهى مكية . وآيها ستون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا)

« وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا » يعنى : الرياح التى تذرو البخارات ذرواً . أى نوعاً من الذرو ليعقدها سحباً . أو النساء الولود، فإنهن يذرين الأولاد ، مجازاً شبه تتابع الأولاد بمايتطاير من الرياح . أو الأسباب التى تذرى الخلائق من الملائكة وغيرهم . وهو استعارة أيضاً ، شبهت الأشياء المعدة للبروز من كمون العدم ، بالرياح المفرقة للحبوب ونحوها .

و « الذَّٰرِيَٰتِ »اسم فاعل (ذرا) المعتل بمعنى فرّق وبدّد مارفعه عن مكانه . ويقال : أذرى أيضاً . وأما (ذرأ) المهموز فبمعنى أنشأ وأوجد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا)

« فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا » أى السحب الحاملة للأمطار المنبتة للزروع والأشجار لإفادة الحبوب والثمار . كما قال زيد بن عمرو بن نفيل (١) :

وأسلمتُ نفسى لمن أَسْلَمَتْ   له المزنُ تحمل عَذْباً زُلَالَا

أو الرياح الحاملة للسحاب ، أوالنساء الحوامل ، أو أسباب ذلك .

و (الوِقر) بكسر الواو ، كالحمل وزناً ومعنى . وقرئ بفتح الواو على أنه مصدر سمى به المحمول .

(١) البيت من أربعة أبيات فى شعراء النصرانية (صفحة رقم ٦٢٢) . والرواية هناك :

* وأسلمت وجهى . . . *

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا)

[٤] (فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا)

« فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا » أى السفن الجارية فى البحر سهلًا. أو الرياح الجارية فى مهابّها. أو الكواكب التى تجرى فى منازلها . و (يُسْرًا) صفة مصدر محذوف . أى جرياً ذا يسر « فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا » أى الملائكة التى تقسّم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها. أو مايعمهم وغيرهم من أسباب القسمة . أو الرياح يقسمن الأمطار بتصريف السحاب .

تنبيهات :

الأول ـ ذكرنا أن هذه الأمور الأربعة يجوز أن تكون أموراً متباينة ، وأن تكون أمراً له أربعة اعتبارات . والأول هو المأثور عن علىّ رضى الله عنه : أن الذاريات هى الرياح، والحاملات هى السحاب ، والجاريات هى السفن، والمقسمات هى الملائكة. واختار بعضهم فى (الجاريات) أنها الكواكب ، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى: فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك ، والملائكة فوق الجميع ، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية .

واستظهر الرازىّ أن الأقرب أن تكون صفات أربع للرياح ، وأطال فى ذلك .

واللفظ متسع بجوهره للكل ـ والله أعلم ـ .

الثانى ـ فائدة (الفاء) إن قيل إنها صفات الرياح ، فلبيان ترتيب الأمور فى الوجود . فإن الذاريات تنشئ السحاب ، فتقسم الأمطار على الأقطار . وإن قيل إنها أمور أربعة ، فالفاء للترتيب الذكرىّ أو الرتبىّ .

الثالث ـ ذكر الرازىّ فى الحكمة فى القسم وجوهاً :

أحدها ـ أن الكفار كانوا فى بعض الأوقات يعترفون بكون النبىّ ﷺ غالباً فى إقامة

الدليل ، وكانوا ينسبونه إلى المجادلة ، وإلى أنه عارف فى نفسه بفساد مايقوله ، وأنه يغلبنا بقوة الجدل ، لابصدق المقال . كما أن بعض الناس إذا أقام عليه الخصم الدليل ، ولم يبق له حجة ، يقول : إنه غلبنى لعلمه بطريق الجدل، وعجزى عن ذلك. وهو يعلم فى نفسه أن الحق بيدى ، فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين ، فيقول : والله ! إن الأمر كما أقول، ولا أجادلك بالباطل . وذلك لأنه لو سلك طريقاً آخر من ذكر دليل آخر ، فإذا تمّ الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ماقال فى الأول، إن ذلك تقرير بقوة علم الجدل، فلا يبقى إلا السكوت، أو التمسك بالأيمان ، وترك إقامة البرهان .

ثانيها ـ أن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة ، وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع . ثم إن النبىّ ﷺ أكثر من الأيمان بكل شريف ، ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتاً. وكان يحصل لهم العلم بأنه لايحلف بها كاذباً ، وإلا لأصابه شؤم الأيمان، ولناله المكروه فى بعض الأزمان.

ثالثها ـ أن الأيمان التى أقسم الله تعالى بها ، كلها دلائل أخرجها فى صورة الأيمان . مثاله قول القائل لمنعمه : وحق نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك . فيذكر النعم ، وهى سبب مفيد لدوام الشكر ، ويسلك مسلك القسم. كذلك هذه الأشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الإعادة .

فإن قيل: فلمَ أخرجها مخرج الأيمان ؟ نقول: لأن المتكلم إذا شرع فى أول كلامه بحلف، يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم ، فيصغى إليه أكثر من أن يصغى إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر ، فبدأ بالحلف ، وأدرج الدليل فى صورة اليمين، حيث أقبل القوم على سماعه ، فخرج لهم البرهان المبين ، والتبيان المتين، فى صورة اليمين . انتهى . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ)

[٦] (وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ)

« إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ » جواب القسم . و (ما) موصولة أو مصدرية . والموعود

هوقيام الساعة، وبعث الموتى من قبورهم. و (صادق) بمعنى صدْق . فوضع الاسم مكان المصدر. أو هو من باب (عيشة راضية) . « وَإِنَّ ٱلدِّينَ » أى الجزاء على الأعمال، إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر «لَوَاقِعٌ » أى لحاصل . قال قتادة : وذلك يوم القيامة، يوم يدين الله العباد بأعمالهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ)

[٨] (إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ)

[٩] (يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ)

« وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ » أى الطرق المختلفة التى هى دوائر سير الكواكب .

و (الحبك) أصل معناها مايرى كالطريق فى الرمل والماء ، إذا ضربته الريح. وكذلك حبك الشَّعر : آثار تثنّيه وتكسّره . و(الحبك) بضمتين جمع حِباك ، كمثال ومثل وكتاب وكتب . أو حبيكة كطريقة وطرق . قال زهير يصف غديراً[1] :

مكللٌ بأصولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ ريحٌ خَرِيقٌ لضاحى مائِهِ حُبُكُ

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزوّدوك اشتياقاً ، أية سلكوا .

قال الأصمعىّ : النجم : النبت الذى يقال له الثَّيلُ . وقال غيره: الماء مكلَّل بالنجم . وهو كل شىء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل .

ويقال : نَجَمَ البقلُ : إذا طلع . ومنه : نجم قرن الظبية إذا طلع .

ريح خارق ، يقال : هبت الشَّمالُ خَرِيقا ، إذا هبت هبوبا شديدا .

لضاحى مائه : ما ضحا للشمس من الماء ، برز للشمس .

وحُبُك : طريق الماء . الواحد حَبِيك .

يقول : إذا مرت به الريحُ نسجت الريح ذلك الماء . ونسْجُها إياه : مَرُّهَا عليه.

(انظر شرح الديوان ، صفحة ١٧٦ ، طبعة الدار) .

ويقال : ما أملح حباك هذه الحمامة ! وهو الخط الأسود على جناحها .

وعن الحسن[1] : (ذات الحبك) أى النجوم . قال : حُبِكَتْ بالْخَلْقِ الحسن ، حُبِكَتْ بالنجوم . وذلك لأنها تزين السماء ، كما يزين الثوب الموشىّ تحبيكه ، فشبهت النجوم بطرائق الوشى مجازاً بالاستعارة .

وقال بعض علماء الفلك : الحبك جمع حبيكة ، بمعنى محبوكة ، أى : مربوطة . فمعنى (ذَاتِ ٱلْحُبُكِ) ذات المجاميع من الكواكب المربوط بعضها ببعض بحبال من الجاذبية ، فإن كل حبيكة مجموعة من الكواكب المتجاذبة . فالآية الشريفة نص على تعدد المجاميع وعلى الجاذبية التى يزعم الأفرنج أنهم مكتشفوها . وعليه ، فهى إحدى معجزات القرآن العلمية . انتهى .

« إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ » أى متخالف متناقض . قال ابن زيد : يتخرصون يقولون : هذا سحر ويقولون (إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ) « يُؤْفَكُ » أى يصرف « عَنْهُ مَنْ أُفِكَ » أى صرف عن الحق الصريح الصرف التام ، إذ لا صرف أشد منه .

وقد ذكر القاضى فى مناسبة المقسم به للمقسم عليه ، هو تشبيه أقوالهم فى اختلافها ، وتنافى أغراضها ، بالطرائق للسموات فى تباعدها ، واختلاف غاياتها .

ثم أشار إلى أنهم لم يؤفكوا لاتباعهم الدلائل ، بل لأخذهم بالخرص والتخمين ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ)

[١١] (ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ)

[١٢] (يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ)

[١٣] (يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ)

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبرىّ ، الصفحة رقم ١٨٩ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

« قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ » أى لعن الآخذون بالتخمين ، مع ترك دلائل اليقين « ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ » أى فى جهل يغمرهم عن وجوب اتباع الدلائل القاطعة ، وترك الشبهات الواهية « سَاهُونَ » أى غافلون عما أتاهم ، وعما نزل إليهم ، بالانهماك فى اللذات البدنية ، واستئثار الحظوظ العاجلة « يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ » أى متى يوم الجزاء ، ويوم يدين الله العباد بأعمالهم « يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ » أى يحرقون . وأصل الفتن إذابة الجوهر ليظهر غشه . ثم استعمل فى التعذيب والإحراق ونحوه .

قال القاضى : جواب للسؤال . أى يقع يوم هم على النار يفتنون ، أو هو يوم هم .. الخ وفتح (يومَ) لإضافته إلى غير متمكن ، ويدل عليه أنه قرئ بالرفع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ)

« ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ » أى مقولا لهم : ذوقوا عذابكم الذى طلبتموه ، بل الذى استعجلتموه قبل وقته ، كما قال « هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ » أى حصوله فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ)

[١٦] (ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ)

[١٧] (كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

[١٨] (وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[١٩] (وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ)

« إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ » أى الذين اتقوا الله بطاعته ، واجتناب معاصيه فى الدنيا ، وبتجنب

القول بالحرص والتخمين فى الأمور الاعتقادية . « فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ » قال ابن جرير [1] : أى عاملين ما أمرهم به ربهم، مؤدين فرائضه . وقال غيره : أى قابلين لما أعطاهم من النعيم الأخروىّ ، راضين به .

وهذا هو الوجه . ولذا قال ابن كثير : والذى فسر به ابن جرير فيه نظر، لأن قوله تبارك وتعالى (ءَاخِذِينَ) حال من قوله (فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ) فالمتقون فى حال كونهم فى الجنات والعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم . أى من النعيم والسرور والغبطة .

ثم أشار إلى سر استحقاقهم لذلك بقوله « إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ » يعنى : فى الدنيا « مُحْسِنِينَ » أى قد أحسنوا أعمالهم لغلبة محبة الله على قلوبهم ، بظهور آثارها فى أفعالهم وأقوالهم، كما بينه بقوله سبحانه « كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » أى كانوا يهجعون هجوعاً قليلًا ، لتقوى نفوسهم على عبادته تعالى ، بنشاط .

روى ابن جرير [1] عن أنس فى الآية ؛ أنهم كانوا يصلّون ما بين هاتين الصلاتين، ما بين المغرب والعشاء .

وعن محمد بن علىّ : كانوا لا ينامون حتى يصلّوا العتمة .

وعن مطرّف : قلّ ليلة أتت عليهم ، إلا صلوا فيها من أولها أو من وسطها .

وعن الحسن قال : لا ينامون من الليل إلا أقله ، كابدوا قيام الليل .

وقرأ الأحنف بن قيس هذه الآية فقال : لست من أهل هذه الآية .

وعن الضحاك : أن الوقف على قوله تعالى (كَانُوا۟ قَلِيلًا) أى أن المحسنين كانوا قليلًا. ثم ابتدئ فقيل (مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) . و (ما) نافية . أى لا يهجعون .

قال ابن كثير : هذا القول فيه بعد وتعسف .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٦ من الجزء السادس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

لطيفة :

فى هذه الجملة الكريمة مبالغات فى وصف هؤلاء بقلة النوم ، وترك الاستراحة . وذلك ذكر القليل ، والليل الذى هو وقت النوم ، والهجوع الذى هو الخفيف من النوم ، وزيادة (ما) لأنها تدل على القلة . وبالجملة ، ففى الآية استحباب قيام الليل، وذم نومه كله. والأحاديث على ذلك كثيرة شهيرة « وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » قال القاضى : أى أنهم مع قلة هجوعهم، وكثرة تهجدهم، إذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار ، كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم.

قال الرازىّ : فى الآية إشارة إلى أنهم كانوا يتهجّدون ويجتهدون، ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك ، وأخلص منه، فيستغفرون من التقصير . وهذا سيرة الكريم : يأتى بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ، ويعتذر من التقصير . واللئيم يأتى بالقليل ويستكثره ، ويمنّ به . وفيه وجه آخر ألطف منه : وهو أنه تعالى ، لما بيّن أنهم يهجعون قليلًا ، والهجوع مقتضى الطبع ، قال (يَسْتَغْفِرُونَ) أى من ذلك القدر من النوم القليل . وفيه لطيفة أخرى نبّينها فى جواب سؤال : وهو أنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ، ولم يمدحهم بكثرة السهر، وما قال : كانوا كثيراً من الليل ما يسهرون ، فما الحكمة فيه ؟ مع أن السهر هو الكلفة والاجتهاد، لا الهجوع ؟ نقول : إشارة إلى أن نومهم عبادة ، حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجعين قليلًا ، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى ، وهو الاستغفار، فى وجوه الأسحار، ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار .

ثم قال : والاستغفار يحتمل طلب المغفرة بالذكر بقولهم : ربنا اغفر لنا . وطلب المغفرة بالفعل ، أى بالأسحار. يأتون بفعل آخر طلباً للغفران ، وهو الصلاة . والأول أظهر، والثانى عند المفسرين أشهر . انتهى .

ويؤيد الثانى الإشارة إلى الزكاة فى الآية بعدها. والزكاة قرينة الصلاة فى كثير من الآيات. وسر التعبير عن الصلاة بالاستغفار ، الإشارة إلى أنه ركنها المهم فى التهجد، بل وفى غيره،

فيكون من إطلاق الجزء على الكل . وقد ذكر فى أذكار الصلاة الاستغفار فى مواضع منها. كالركوع والسجود وبين السجدتين وآخر الصلاة، كما أخرجه الشيخان وأهل السنن ـ وكان ﷺ يطيل الركوع والسجود والتهجد لذلك .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ فى (أساس البلاغة) إنما سمى (السحر) استعارة ، لأنه وقت إدبار الليل ، وإقبال النهار ، فهو متنفس الصبح . انتهى .

« وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ » أى الفقير المتعفف الذى يُظَن غنيًّا ، فيحرم الصدقة .

قال قتادة : هذان فقيرا أهل الإسلام : سائل يسأل فى كفه ، وفقير متعفف، ولكليهما عليك حق ، يا ابن آدم .

وفى الصحيح[1] عن النبىّ ﷺ : ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان . ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه .

وروى الإمام[2] أحمد عن الحسين بن علىّ رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : للسائل حق وإن جاء على فرس . ورواه أبو داود وأسنده عن علىّ كرم الله وجهه .

ويدخل فى (المحروم) كل من لا مال له ، ومن هلك ماله بآفة ، ومن حرم الرزق واحتاج ، إلا أن أهم أفراده المتعفف . ولذا عوّل عليه الأكثر .

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس : فى أموالهم حق سوى الزكاة يَصِلون بها رحماً، أو يقرون بها ضيفاً ، أو يحملون بها كَلًّا .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٢ ـ سورة البقرة ، ٤٨ ـ باب لا يسألون الناس إلحافا ، حديث رقم ٧٨٨ ، عن أبى هريرة .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٠١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٧٩٠ (طبعة المعارف) .

ثم أشار تعالى إلى أنه لاحاجة إلى الخرص والتخمين فى باب الاعتقادات، لكثرة الآيات الواضحة ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ)

« وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ » أى عبر وعظات لأهل اليقين ، وهم الذين يقودهم النظر إلى ماتطمئن به النفس ، وينثلج له الصدر ، فيرون فيها ممـا ذرأ من صنوف النبات والحيوانات ، والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار ، عبراً وآيات عظاماً، وشواهد ناطقة بقدرة الصانع ووحدانيته ، جل جلاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

« وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى فى حال ابتدائها وتنقلهـا من حال إلى حال ، واختلاف ألسنتها وألوانها ، وما جبلت عليه من القوى والإرادات، وما بينها من التفاوت فى العقول والأفهام ، وما فى تراكيب أعضائها من الحكم فى وضع كل عضو منها ، فى المحل المفتقر إليه ، إلى غير ذلك ممالا يحصيه قلم كاتب، ولا لسان بليغ .

أنشد الحافظ ابن أبى الدنيا فى كتابه (التفكر والاعتبار) لشيخه أبى جعفر القرشىّ :

وإذا نظرتَ تريد معتبَراً ... فانظر إليك ، ففيك معتبرُ
أنت الذى تُمسى وتُصْبِحُ فى الـ ... ـدُّنْيـا وكلُّ أمورِهِ عِبَرُ
أنت المصرّف كان فى صغر ... ثم استقلّ بشخصك الـكبَرُ
أنت الذى تنعاه خلقتُهُ ... ينعاه منه الشَّعْرُ والبَشَرُ
أنت الذى تعطَى وتسلَب، لَا ... ينجيه من أن يُسلَب الحَذَرُ
أنت الذى لاشىء منـه له ... وأحقُّ منـه بما له القَدَرُ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

«وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ» يعنى بـ (السماء) المزن ، وبـ (الرزق) المطر ، فإنه سبب الأقوات . والمراد بـ (مَا تُوعَدُونَ) العذاب السماوىّ ، لأن مؤاخذات المكذبين الأولين كانت من جهتها . والخطاب لمشركى مكة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ)

« فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ » أى الذى خلقهما للاستدلال بهما على حقيقة ما أخبر «إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ» أى مثل نطقكم . والضمير فى (إنه) عائد لما ذكر من أمر الآيات والرزق ، أو أمر النبىّ ﷺ ، أو إلى (مَا تُوعَدُونَ) ويؤيد الأخير ماتأثره من أنباء وعيد المكذبين ، وبدأ منها بنبأ قوم لوط ، لأن قراهم واقعة فى ممرهم إلى فلسطين للاتجار ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ)

[٢٥] (إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ، قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ)

[٢٦] (فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

[٢٧] (فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

[٢٨] (فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ، وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ)

[٢٩] (فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ)

[٣٠] (قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ)

« هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ » يعنى : الملائكة الذين دخلوا عليه فى صورة ضيف . قال الزمخشرىّ : فيه تفخيم للحديث ، وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ ، وإنما عرفه بالوحى . وإكرامهم أن إبراهيم خدمهم بنفسه ، وأخدمهم امرأته ، وعجل لهم القِرى ، أو أنهم فى أنفسهم مكرمون .

« إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ » أى سلام عليكم « قَوْمٌ مُّنكَرُونَ أى أنتم قوم لا أعرفكم . وهو كالسؤال منه عن أحوالهم ، ليعرفهم . فإن قولك لمن لقيته : أنا لا أعرفك ! فى قوة قولك : عرف لى نفسك وَصِفْهَا .

« فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ » أى ذهب إليهم فى خفية من ضيوفه . ومن أدب المضيف أن يخفى أمره ، وأن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف ، حذراً من أن يكفّه ويعذره ـ قاله الزمخشرىّ ـ وأيده الناصر بما حكى عن أبى عبيد : أنه لا يقال راغ ، إلا إذا ذهب على خفية وأنه يقال روّغ اللقمة إذا غمسها فرويت سمناً . قال الناصر : وهو من هذا المعنى ، لأنها تذهب مغموسة فى السمن حتى تخفى . ومن مقلوباته (غوّر الأرض) والجرح . وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى . انتهى .

« فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ » أى قد أنضجه شيًّا « فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ » أى بأن وضعه بين أيديهم « قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ » أى منه . قال القاضى : وهو مشعر بكونه حنيذاً . والهمزة فيه للعرض ، والحث على الأكل على طريقة الأدب ، إن قاله أول ماوضعه . وللإنكار ، إن قاله حينما رأى إعراضهم .

« فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » أى أضمرها ، لظنه أنهم أرادوا به سوءاً « قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ » أى يبلغ ويكمل علمه « فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ » أى صيحة « فَصَكَّتْ » أى لطمت « وَجْهَهَا » أى تعجباً ، على عادة النساء فى كل غريب عندهن ،

« وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ » أى عاقر ليس لى ولد « قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ » أى مثل الذى قلنا وأخبرنا به، قال ربك، فإنما نخبرك عن الله. فاقبلى قوله، ولا تتوهمى عليه خلاف الحكمة، ولا الجهل، بعدم قبولك للولادة . « إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ)

[٣٢] (قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ)

[٣٣] (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ)

[٣٤] (مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ)

[٣٥] (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

[٣٦] (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ)

[٣٧] (وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ)

« قَالَ » أى إبراهيم لضيفه « فَمَا خَطْبُكُمْ » أى أمركم وشأنكم « أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ* قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ » أى مؤاخذتهم « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ » أى رجماً لهم على فعلهم الفاحشة « مُّسَوَّمَةً » أى مرسلة ، أومعلّمة « عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ » أى المتعدّين حدود الله ، الكافرين به « فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا » أى فى تلك القرية (مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى بإيحاء الخروج إليهم على لسان الملائكة ، وهم لوط وابنتاه عليهم السلام . « فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ » يعنى بيت لوط عليه السلام « وَتَرَكْنَا فِيهَآ » أى فى تلك القرية « ءَايَةً » أى علامة تدل على إهلاكهم الدنيوىّ الدال على الأخروىّ « لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ » أى فى الآخرة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ)

[٣٩] (فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

[٤٠] (فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)

« وَفِي مُوسَىٰٓ » عطف على (فيها) بإعادة الجار ، لأن المعطوف عليه ضمير مجرور . أى وتركنا فى قصة موسى بإهلاك أعدائه ، آيةً وحجة تبين لمن رآها حقية دعواه . « إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ » أى ببرهان ظاهر « فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ » أى فأعرض عن الإيمان . والركن : جانب الشىء . فـ (ركنه) جانب بدنه . فالتولى به كناية عن الإعراض . والباء للتعدية ، لأن معناه ثنى عطفه . أو للملابسة . أو الركن فيه بمعنى الجيش ، لأنه يركن إليه ، ويتقوى به ، والباء للمصاحبة أو للملابسة . « وَقَالَ سَٰحِرٌ » أى هو ساحر « أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ » أى فأغرقناهم فى البحر « وَهُوَ مُلِيمٌ » أى آت بما يلام عليه من الكفر والعناد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ)

[٤٢] (مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ)

« وَفِي عَادٍ » أى وتركنا فى عاد ، قوم هود عليه السلام آية « إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ » أى التى لا خير فيها من إنشاء مطر ، أو إلقاح شجر . وهى ريح الهلاك . « مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ » أى الشىء الهالك . وأصل الرميم : البالى المفتت ، من عظم أو نبات أو غير ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ)

[٤٤] (فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ)

[٤٥] (فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ)

« وَفِى ثَمُودَ » أى وتركنا فى ثمود ، قوم صالح عليه السلام « إِذْ قِيلَ لَهُمْ » أى بعد عقرهم الناقة « تَمَتَّعُواْ » أى فى داركم « حَتَّىٰ حِينٍ » يعنى : ثلاثة أيام ، كما بينته الآية الأخرى .

« فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ » أى فاستكبروا عن امتثاله « فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ » يعنى العذاب الحالّ بهم ، المعهود « وَهُمْ يَنظُرُونَ » أى إليها . فإنها نزلت بهم نهارًا .

« فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ » أى نهوض ، فضلًا عن دفاع عذاب الله « وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ » أى ممتنعين من العذاب . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ)

« وَقَوْمَ نُوحٍ » قرئ بالجر عطفاً على (وَفِى ثَمُودَ) أو المجرورات قبل . وبالنصب مفعولًا لمضمر دل عليه السياق والسباق . أى وأهلكنا قوم نوح . أو عطفاً على مفعول (فَأَخَذْنَٰهُ) أو على محل (وَفِى مُوسَىٰٓ) . « مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ » أى : مخالفين أمر الله ، خارجين عن طاعته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)

[٤٨] (وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ)

« وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ » أى رفعناها بقوة « وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » أى لقادرون على

الإيساع ، كما أوسعنا بناءها . « وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا » أى مهدناها ليتمتعوا بها « فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ » أى لهم . وفى إيثار صيغة فاعل من (مهد على فرش) إشارة إلى أن من المواد ما تختلف صيغته فى النظم فعلًا واسماً ، فيكون فى أحدها أرق وألطف وأفصح ، فيؤثر على غيره فى ظرف، ويؤثر عليه غيره فى آخر. والمرجع الذوق ـ كما بسطه ابن خلدون وابن الأثير.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

« وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » أى ذكراً وأنثى ، أو نوعين متقابلين .

قال ابن كثير : جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض . وليل ونهار . وشمس وقمر . وبر وبحر . وضياء وظلام . وإيمان وكفر . وموت وحياة . وشقاء وسعادة . وجنة ونار . حتى الحيوانات والنباتات . انتهى . وهو مأخوذ من كلام ابن جرير فى تأييد تفسير مجاهد ، وعبارة ابن جرير[1] :

وأولى القولين فى ذلك قول مجاهد : وهو أن الله تبارك وتعالى خلق لكل ماخلق من خلقه ثانياً له ، مخالفاً فى معناه. فكل واحد منهما زوج للآخر، ولذلك قيل (خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) وإنما نبه جل ثناؤه بذلك من قوله (خَلْقِهِ) على قدرته على خلق ما يشاء ، وأنه ليس كالأشياء التى شأنها فعل نوع واحد دون خلافه، إذ كل ماصفته فعل نوع واحد دون ماعداه، كالنار التى شأنها التسخين ولا تصلح للتبريد، وكالثلج الذى شأنه التبريد ولا يصلح للتسخين، فلا يجوز أن يوصف بالكمال ، وإنما كمال المدح للقادر على فعل كل ماشاء فعله من الأشياء المختلفة والمتفقة . انتهى .

« لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » قال ابن جرير[2] : أى لتذكروا وتعتبروا بذلك ، فتعلموا

(١) انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

أيها المشركون بالله ، أن ربكم الذى يستوجب عليكم العبادة ، هو الذى يقدر على خلق الشىء وخلافه ، وابتداع زوجين من كل شىء ، لا ما لا يقدر على ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ، إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ » أى فِرُّوا من عقابه إلى رحمته ، بالإيمان به ، واتباع أمره ، والعمل بطاعته . قال الشهاب : الأمر بالفرار من العقاب ، المراد به الأمر بالإيمان والطاعة ، لأنه لأمنه من العقاب بالطاعة ، كأنه فر لمأمنه . فهو استعارة تمثيلية . « إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى أنذركم عقابه ، وأخوّفكم عذابه الذى أحلّه بهؤلاء الأمم الذين قص عليكم قصصهم ، والذى هو مذيقهم فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ، إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

«وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى قد أبان النذارة . قال أبو السعود : وفيه تأكيد لما قبله من الأمر بالفرار من العقاب إليه تعالى ، لكن لا بطريق التكرير ـ كما قيل ـ بل بالنهى عن سببه ، وإيجاب الفرار منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

[٥٣] (أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

[٥٤] (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ)

« كَذَٰلِكَ » أى كما ذكر من تكذيبهم الرسول ، وتسميتهم له ساحراً أو مجنوناً ،

« مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ » يعنى تقليداً لآبائهم، واقتداءً لآثارهم ، فورد جهالتهم مؤتلف ، ومشرع تعنتهم متحد . وقوله تعالى « أَتَوَاصَوْا بِهِۦ » إنكار وتعجيب من حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التى لا تكاد تخطر ببال أحد من العقلاء ، فضلًا عن التفوُّه بها. أى أأوصى بهذا القول بعضهم بعضاً حتى اتفقوا عليه. وقوله تعالى « بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » إضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشر تواصيهم بذلك ، وإثبات لكونه أمراً أقبح من التواصى وأشنع منه ، من الطغيان الشامل للكل ، الدالّ على أن صدور تلك الكلمة الشنيعة من كل واحد منهم ، بمقتضى جبلته الخبيثة ، لا بموجب وصية مَن قبلهم بذلك ـ أفاده أبو السعود ـ .

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » أى أعرض عن مقابلتهم بالأسوأ ، كقوله تعالى[1] (وَدَعْ أَذَىٰهُمْ) وقوله[2] (وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا). « فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ » أى فى إعراضهم، إذ لست عليهم بجبار ولا مسيطر ، وما عليك من حسابهم من شىء .

تنبيه :

قول بعض المفسرين هنا ـ (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) أى فأعرض عن مجادلتهم ، بعد ما كررت عليهم الدعوة ـ بعيد عن المعنى بمراحل ، لأن مجادلتهم مما كان مأمورًا بها على المدى ، لأنها العامل الأكبر لإظهار الحق ، كما قال تعالى[3] (وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا).

وكذا قول البعض فى قوله تعالى (فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ) أى فى إعراضك بعد ما بلغت . فإنه مناف للأمر بالذكرى بعد . فالصواب ماذكرناه فى تفسير الآية، لأنه المحاكى لنظائرها. وأقعد التفاسير ما كان بالأشباه والنظائر ـ كما قيل ـ : وخير ما فسرته بالوارد .

---

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٨] . (٢) [٨٣ / المزمل / ١٠] .
(٣) [٢٥ / الفرقان / ٥٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

« وَذَكِّرْ » أى عظهم « فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى من قدّر الله إيمانه ، أو الذين آمنوا ، فإنهم المقصودون من الخلق ، لا مَن سواهم ، إذ هم العابدون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

« وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » أى لهذه الحكمة ، وهى عبادته تعالى بما أمر على لسان رسوله ، إذ لا يتم صلاح ، ولا تنال سعادة فى الدارين ، إلا بها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ)

[٥٨] (إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ)

« مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ » بيان لعظمته عز وجل ، وأن شأنه مع عبيده لا يقاس به شأن عبيد الخلق معهم ، فإن عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة ، وبواسطة مكاسب عبيدهم ، قدّر أرزاقهم . والله تعالى لا يطلب من عباده رزقاً ولا إطعاماً ، بل هو الذى يرزقهم . وإنما يطلب منهم عبادته ليصرفوا ما أنعم به عليهم إلى ما خلقوا لأجله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ)

« فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ » أى ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب الرسول ،

والإصرار على الشرك والبغى والفساد، « ذَنُوباً » أى نصيباً وافراً من العذاب « مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ » أى مثل أنصباء نظرائهم من الأمم المحكية . وأصل (الذنوب) الدلو العظيمة الممتلئة ماء ، أو القريبة من الامتلاء . وهى تذكّر وتؤنّث ، فاستعيرت للنصيب مطلقاً، شرًّا كالنصيب من العذاب فى الآية ، أو خيرًا كما فى العطاء فى قول عمرو بن شاس [1] :

وفى كل حىٍّ قد خبطتَ بنعمة فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب ، فيعطى لهذا ذنوب ، ولآخر مثله .

« فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ » أى لا يطلبوا منى أن أعجل به قبل أجله ، فإنه لا بد آتيهم ، ولكن فى حينه ، المؤخر لحكمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ)

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ » أى أوعدوا فيه نزول العذاب بهم ، ماذا يلقون فيه من البلاء والجهد . و (اليوم) إما يوم القيامة ، أو يوم بدر .

قال أبو السعود : والأول هو الأنسب بما فى صدر السورة الكريمة الآتية . والثانى هو الأوفق لما قبله ، من حيث إنهما من العذاب الدنيوىّ ـ والله أعلم ـ .

---

(١) قائل البيت هو علقمه الفحل . من المفضلية رقم ١١٩ التى مطلعها :

طَحَا بكَ قلبٌ فى الحِسَانِ طَرُوبُ بُعَيْدَ الشَّبَابِ ، عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ

يقال : خبطه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما .

وشأس : هو أخو علقمة بن عبدة .

والذَّنوب الدلو . أراد حظًّا ونصيبا .